



دموعة ذُرفت من عين أبي، في لحظة نادرة ، اقتربت منه حينها وانحنىت على يده أقبلها ومن دون أن يشعر أخذت تلك الدمعة وما زلت أحافظ بها حتى اليوم.

مرت الأيام والذكريات تتوالى وكالصاعقة في فصل الصيف كان خبر وفاة أبي نقله لي أخي من هناك، تجمدت العروق في جسدي وشخصت عيناي بعيدا، خلعت الساعة من يدي فما عادت تعنني .
خارج غرفتي كانت أشعة الشمس مظلمة جدا ولأول مرة لم تكن قادرة على إظهار ظلي الطويل حينها .
في حقيقة الأمر، خرجت من جسدي وصرت أترقبه من الأعلى، مازا تراه فاعل الآن؟

رفع رأسه إلى السماء، ابتسم مطمئنا وعاد إلى غرفته، في الوصية كان مكتوبا ”بني دمعتي تلك التي احتفظت، اذرفها لحظة فخر!

طفل صغير من حارتني سئم منظر أبيه يعود إليهم آخر النهار، ينظر زوجته تحمل بيديها أخيه الوليد منذ أيام خلت، يتبادل الآباء الحديث بصمت العيون، فالحديث عن اللا شيء بصوت مسموع بات مزعجا جدا في الأيام الأخيرة، الأرض صودرت فالأفضل أن ننساها لا أن نطالب بها!

ما أن بزغت شمس ذلك الصباح حتى تجمع أولئك الأطفال وخرجوا في شوارع الحي ينظرون السماء فلا شيء يحمي حلمهم سواها وجلبوا معهم الطلاء وكتبوا على الحائط كفرا بالنظام القمعي ”الشعب يريد إسقاط النظام“ بين الكتابة على الجدران حين كانت الشوارع مفقرة و بين تجمع جنود السلطان كانت لحظة واحدة فقط، إلا أنها كانت كفيلة بإنهاء معركة الأطفال

بنصر مبين لجلاديهم .

تم اقتيادهم إلى السجن ولأول مرة عرف الأطفال بأنه من الممكن أن يكون هناك عدة طوابق تحت الأرض على غير ما عرفوه غرف ضيقة جدارتها متسخة وعليها بقع دم منها القديم الذي أصبح كمثل الطلاء ومنها ما يشع منه النور لحداثته، صوت أقدام تقترب من زنزانة أولئك الصبية، تختلط الشتائم التي يتلوها الجنادون مراسيم رئاسية بصوت الأطفال الحديدية التي تفتح باب الزنزانة، وتبدأ المراسم الشيطانية بركل الأطفال إلى ذلك الممر الذي تبعه منه رائحة غريبة على أنوف أولئك الصبية، سوف لم يستغربوها لاحقاً فقد بدأت الكلمات تنهال عليهم وصفعة هنا وسوط هناك وتم تثبيت الأطفال وتتجري مراسم تقليل الأظافر بخلعها!

ماذا يمكن أن يكون بداخل رؤوس أولئك الذين انهالوا ضرباً بالهراوات والعصي والكلمات على أولئك الصبية!
هل كانوا فعلاً مستمعين بسماع نحيب أطفال وهم يصرخون تحت وطأة خلع الأظافر!
على ما يبدو كانوا مستمعين جداً بقيامهم بالعمل المنوط بهم فهم الآن في معركة تحرير وتعذيبهم وتنكيلهم هو حماية لصمومنا وتصدينا ممانعتنا ومقاومتنا المهزولة بعهر كلام السلطان.

لطالما قال لي أخي متندرا ”لو أتني جمعت ليرة عن كل مرة سمعت بها كلمة مفاوضات لكتن اليوم ملياردير!“
كان السلام شغلنا الشاغل فدخلنا في مفاوضات طويلة عبر السنين ولكن على ما يبدو كان الفارق كبيراً جداً بين سلامنا ”السلام عليكم ورحمة الله“ وسلامهم ”شالوم“ اجتمع أهالي الأطفال ب الكبير الجنادون يريدون إنتهاء المسألة بأكبر قدر من السلام وقد جلبوا معهم حفنة تنازلات لتقديمها أضحيه أمام قدمي السجان.
قطع عليهم محاولتهم البدء بالكلام بأن قال لهم ”سنسأحكم على ما كتب أطفالكم من عبارات كفر“ نظروا إليه بابتسمات صفراء ”كثرة الله خيرك أخي“ وتابعوا قائلاً ”بما أن الأمور قد انتهت هكذا سنعدك بأن لا يقدم الأطفال على ما قاموا به لاحقاً، والآن دعنا نصطببهم إلى المنزل فهم ولاشك بحاجة إلى بعض الدفع ووثير الفراش“ حملق بهم واحداً تلو الآخر ثم قال ”انسوا أمر الأطفال وانهبو إلى زوجاتكم وإيمانهن ولادة أطفالاً آخرين لكم“ علت علامات الدهشة وجوههم جميعاً واختلطت بالكلمات المتبعثرة الصادرة من جميعهم معاً ليقطع عليهم حديثهم مرة أخرى قائلاً ”

إذا لم يكن بإمكانكم ذلك، أرسلوا زوجاتكم لنا وسنجلب نحن لكم أطفال!!!!“

رغم أن ما سمعوه كان كفيلاً بهدم جبال، إلا أنهم لم يريدوا أن تنتهي حيت بدأت.
كان من السهل جداً أن يقوم أحد بصفعه صفعه لم يعهد أن أحداً قادر على صفعه إياها يوم تقلد تلك الغربان برتبة على كتفه!
وقد تؤدي إلى قتل ذلك الذي صفع حينها ولتنتهي الأمور على ما هي عليه، إلا أنهم كظموا غيظهم كما لم يفعلوا يوماً وانصرفوا اجتماعاً ليلاً والجميع غاضب يمر أمام كلّ منهم شريط قهر واستبداد لا ينتهي بدأ بولادتهم ووصل الآن إلى ذروة ما يمكن للصبر أن يحتمله.

الاقتراحات بدت ممن استطاع مسك لجام غضبه ولكنها انتهت بكلمة مزلزلة من كبيرهم ختمها عندما رمى عقاله أرضاً بقوله ”هذا العقال ما يرجع إلا والحرية ترفرف فوق روسنا“ جاء يوم الثامن عشر من آذار كان لذلك اليوم ضوء مختلف لنور الشمس التي بزفت كغير عادتها أكثر دفناً وسارعت بارتفاعها لأنها تشعر بيوم جديد لم تعهد من قبل، وفدت في منتصف سماء درعاً البليد وببدأت تراقب بدهشة...

خرجت جموع الرجال إلى الساحات تهتف بملء أفواهها ”الله..سوريا ..حرية وبس“ في كل تالية يعلو الصوت أكثر لأنهم يزدحون الصداً الذي تراكم من أصواتهم .

لهماتهم دوي ملأ سماء درعاً الآية، وهناتهم كانت كمثل الكفر بمعتقدات قطاع الطرق الجائدين فوق قلوبنا منذ حين.
لم يكن لذلك جواباً إلا زخ للرصاص مطر شتاً منهمر صدور عارية إلا من قلوب ملؤها الإيمان بالله والوطن والحرية،

يقابلها أجساد خاوية تحمل الأسلحة النارية تطلق الرصاص حيا ليدخل قلب الحي فتحيا الشجاعة في قلوب الرجال وتسطر العهد بأنهم على ما بدأوا مستمرين اختلطت المظاهرات وأعراس تشيع الشهداء ببعضها، فكل مظاهرة تزيد الشهداء و كل عرس شهيد يزيد المظاهرات.

وكل يوم أصبح دما طاهرا يروي الأرض الظماء للحرية والكرامة العزة.

انطلقت تلك النار التي ستتپئر أرضا من طغاء الليل من هنا من درعا الأبية وزفت لنا حين سمعنا "من حوران هلت البشائر" كانت الدبابات القمعية على وشك أن تنتهي صلاحياتها لولا أن هب الشعب لحظة حرية، فطوقت الدبابات درعا وحاصرت بقوات الظلام التي كان جولتنا المحتل على مرمى بصرها، إلا أنها أبىت إلا أن توجه مدعيتها إلى صدور أولئك الذين يشاطرونهم هواء وماء الوطن.

عمّ الخراب والدمار كل مكان طاله جنازير دباباتهم ومدرعاتهم، قطعت المياه والكهرباء والاتصالات وعلت ضحكاتهم على صدى قول قائهم ممسكا بالللاسلكي "سيدي" ، انتهت المهمة وسترجع الأمور كما كانت، بل و أفضل مما كانت عليه" وفي تلك اللحظة التي ظن الشيطان بأن الرجال استكانت، هبت درعا عن بكرة أبيها حشودا مرعبة تزلزل الأرض، مطلبهم بسيط جدا لم يكن لديهم طمع في ما عاده فإذا الشهادة أو الحرية، كان هذا جليا جدا في هتافاتهم "الموت ولا المذلة" وبدأ الشهداء يحلقون للسماء للعلاء حتى أنك لترى أولئك فوق الأرض وأخرهم في أعلى السماوات.

واشتد الحصار فصرخت درعا "أيا أخوتى هبوا للحرية فليس لنا بعد اليوم رحمة سوى رحمة الله"

هناك على بعد مئات الكيلو مترات نحو الشمال من درعا حيث تذرف الجبال سهولها باتجاه البحر لي الرجال والنساء نداء درعا وخرجوا متزاحمين صرخاتهم تشق عباب السماء "يا درعا حنا معاكي للموت" "الشعب يريد إسقاط النظام" "الله سوريا .. حرية و بس" كان ذلك كمثل الصاعقة على أولئك الجاثمين على أحلامنا فلقد اهترأت عقولهم نتيجة استكانتنا ليس لجبن وإنما لقهر وقتل ودمار ولكن اليوم ليس كالآمس.

أحاطت فرق الموت بالهاتفين بحياة درعا والحرية ينظرونهم من بعيد تعلو وجوههم نظرة خوف يحاولون الضحك بصوت عالٍ لكي تتبدل معالم الخوف في وجوههم إلى غيرها من معالم ، ولكن ما الذي يتوجب عليهم فعله لتبدل معالم الخوف في قلوبهم؟

ما إن خيمت الظلمة على المكان حتى انهمر الرصاص الحي غزيرا من كل صوب فإذا بثلاثين شهيدا وشهيدة يذينون ساحة حيينا، وأن دماء الحرية تعكس الخوف على وجوههم، فقد كان حرصهم واضحا على رش المياه في الطرقات سيارات إزالة أثار الدماء من شوارع الحي.

ألم يعلم هؤلاء الطغاة بأن الدماء الطاهرة لا يمكن لشيء أن يزيل أثراها؟!

ألم يعلم أولئك القتلة بأن كل قطرة دم ذرفت، ستحول أيامهم إلى جحيم في هذه الحياة قبل الحساب.

لم يكن أهل حمص وجسر الشغور وإدلب ودير الزور وحماء والشام وريفها والرقة والحسكة والقامشلي وبانياس وتكلخ ودوما والقابون وتلبiese والبياضة وأنخل وجاسم ونوى والبوكال وكناكر وكل بقعة ارض في سوريا لم يكونوا بأقل كرماً. كانوا يخرجون كل يوم لتقديم الشهداء لنسج البطولات وما زالوا يخرجون وسيستمر خروجهم حتى نيل مبتغاهم "الحرية" كثيرة هي البطولات التي سمعتها وشاهتها كثيرة هي الأساطير التي سيروبيها التاريخ عن تلك الملهمة المتوسطية والفرق بينها وبين الأساطير بأنها ستكون قصصا حقيقة لن تنسج من خيال خصب.

فما من خيال يرقى لنسج أسطورة كمثل حمزة الخطيب وهادي والقاشوش ورهف ولا أولئك الذين فاقوا عشرات آلاف شهيد وشهيدة.

كل واحد منهم كان طفلاً أو أخاً أو أباً أو أختاً أو أمّاً لنا قريب جداً ذلك اليوم الذي ستسمعون عن تلك البطولات.

والاليوم فقط بإمكانكم أن تضمنوا أسماؤكم إلى تلك القصص البطولية.

اعلموا جميعاً أننا منتصرون، واعلموا بأن أحداً يضن علينا بكلمة ستقتل فرداً منا هو أخُّ أو أختُ لكم . ثوارنا مصرون على أن يكونوا أمل وضمير الشعب في سوريا بل ضمير الإنسانية جموع رافعين شعار "الموت و لا المذلة" وثورتنا تزداد نضوجاً وقوة وتحقق الانتصار تلو الآخر، ومؤكدين بأنه أمم تنهض وأمم تمرض و تستمر حركة التاريخ، وأن ثورتنا المباركة كانت معجزة عند حدوثها ومؤثرة عند استمرارها وقوية بثباتها و مذهلة بأبنائها. و نسأل الله أن يعجل في نصرها. ...

المصادر: